القصة الحادية والعشرون ـ مرارة الفقد

أحمد ماهر

في الثالثة عشرة من عمري في يوم من أيام الشتاء المؤسفة، هكذا أصفها لأننا نقطن في قرية ريفية كان يومًا تتسم فيه السماء بالصفاء الشديد استيقظنا على صوت الزغاريد وتهليل الصبية ومباركة الجيران لا أعلم لماذا أذكر ذلك اليوم بكل تفاصيله من تفاصيله ربما لأنني أتسم بذاكرتي الحديدية وربما أيضاً لأنه يومٌ رائعٌ من الأيام التي لا تُنسى حتى ولو طوتها السنوات طياً.

تباً للذاكرة نسيت أن أخبركم أن في هذا اليوم أُقيم حفل زفاف ابن عمي الأكبر الذي أصبح يافعاً وقرروا أن يزوجوه بفتاة أحبها كثيراً، كنت فرحاً في ذلك اليوم فرحة لا توصف ربما لأنني أعشق ابن عمي لدرجة الجنون. فقد كان يحبني كثيراً ويحنو علي ليس كعادة الآخرين الذين يضيقون ذرعاً من تصرفات الأطفال حتى ولو كانوا رائعين مثلي.

وكعادتنا في القرى نبارك للعروسين ونرقص ولا نتوقف عن الرقص ونغني ثم يذهب العروسان إلى عش الزوجيه.

وفي ذلك اليوم كانوا يرددون "الفرح للعريس والجري للمتاعيس" ربما لم يتطابق هذا المثل معي لأنني كنت فرحاً من كل قلبي وكأنني العريس.

خانتني الذاكرة بعد ذلك ولم أتذكر العديد من الأيام سوى تلك الأيام التي كانت تحتوي على ذكريات مؤلمة مثل خلافات زوجته مع عمي وزوجته مما أدى إلى تركه المنزل. وسكنه في بيت مستقل لأن محاولات الصلح باءت بالفشل.

مرت الأيام وكنت أقابله صدفة، وكان يحتضنني بحنان كنت أدرك أنه يريد العودة ولكن هكذا تمضي الأيام وهكذا تكون الحياة.

وقبل عامين بدأت المياه تعود إلى مجاريها وتصالح هو وعمي وكان يزورنا هو وأطفاله الذين تعلقنا بهم كثيراً.

لكن ظروف الحياة ومشاغلها فرقتنا ثانية فقد كانت إجازاته محدودة وأنا أيضاً فعملي كان يشغلني واستمر الحال هكذا إلى أن اقترحت عليهم اقتراحاً، هو أن نجمع العائلة كل خميس لنلعب كرة القدم سوياً ولم لا فهي تجري في عروقنا مجرى الدم.

قوبل الاقتراح بالاعجاب الشديد وتم التنفيذ ما أغرب الأقدار لم نكن نتقابل نهائياً وبعدها تقابلنا لأكثر من مرة وكان يحضر أولاده معه كنت سعيداً به حقاً وفي أحد الأيام

سألته : متى ستأتي لزيارتنا.

قال : قريباً جداً إن شاء الله.

في أحد الأيام اتصل بي أبي وأخبرني بأنّ ابن عمي تعرض لحادث سير وهو في طريق عودته للمنزل أخبرت أبي بأني قادم لنذهب سوياً ونطمئن عليه.

بعدها بساعة كرر أبي اتصاله وهو يبكي ويخبرني أن ابن عمي في ذمة الله

لم أتمالك نفسي وبكيت كثيراً وطوال طريق العودة أبكي كطفل صغير يفتقد أباه الذي لطالما كان يحنو عليه ولم أنس كلماته الأخيرة لي التي ستظل محفورة في قلبي من شخص كان عزيزاً جداً

كل ما أود قوله هو

إنّ العين لتدمع وإن القلب ليحزن وإنا على فراقه لمحزونون وإنا لله وإنا إليه راجعون »

*****